وصف الطبائع لثيوفراستس

(١)

الفيلسوف ثيوفراستس من اكبر فلاسفة اليونان خلف ارسطو في التعليم وتوفي سنة ٢٨٧ قبل الميلاد . ولهُ مصنفات عديدة اشهرها كتابهُ المعروف « بالطبائع » الذي توخينا نقلهُ لقراء المقتطف . وهو كتاب صغير الحجم ولكنهُ كبير القيمة عظيم الفائدة اتى فيهِ صاحبهُ على وصف طبائع البشر وصفاً مجرداً عن المين وان شئتَ فقل انهُ عبارة عن مرآة يرى فيها كل واحد منا صورتهُ الادبية فيظهر لهُ شكلها مليحاً كان او قبيحاً . وان كان سقراط مستنبط العلم الادبي ومشيّد اركانهِ فثيوفراستس اول مَن تصدى لدرس الطباع على اختلاف نزعاتها او بعبارة اخرى اول من تعرّض لتهذيب الاخلاق من طريق النقد . وقد حذا حذوهُ لابرويير الكاتب الفرنسوي الكبير فصنّف كتابهُ الذي طبقت شهرتهُ الآفاق . على ان الفضل للمتقدم وان طال عليهِ الزمان . او سبقهُ غيرهُ من المتأخرين في مضمار البلاغة والتبيان

فلو قبل مبكاها بكيتُ صبابةً عليها شفيتُ النفسَ قبل التندمِ
ولكن بكت قبلي فهيّج لي البكا بكاها فقلت الفضلُ للمتقدمِ

وهاك بيان الغرض الذي من اجلهِ صنّف الفيلسوف كتابهُ . قال مخاطباً احد تلاميذهِ

لست ادري كيف اوى في بلاد مثل اخريقيا مشابهة قليلةً جدًّا بين اخلاق اهلها مع انهم عاشوا و يعيشون تحت سماء واحدة ورضعوا لبنًا واحداً وتربوا تربيةً واحدة . ان الذي بلغ من الكبر عتيًّا نظيري لجدير بمعرفة البشر والحكم على طباعهم لاني رأيت مدة حياتي الطويلة خلقاً كثيراً وكان همي منصرفاً ابداً الى درس اخلاق ذوي الفضيلة والرذيلة معاً حتى خبرتُ طبائع الفريقين . ثم اني لم اقتصر على وصف مجموع الامة وصفاً عامًّا بل تناول بحثي كل فرد من افرادها على حدتهِ . وانا ارجو ان يعود تعبي هذا بالنفع على الذين يأتون بعدنا اذ يعلمهم كيف يميزون بين الذين يرتبطون معهم برباط التجارة او بين الذين يتخذونهم قدوة لهم في الحكمة والفضائل مدفوعين الى ذلك بعامل المنافسة . اما انت يابوليكلس فيجب عليك ان تسبر غور المعنى الذي ارمي اليهِ في كلامي لعلك تجد الحقيقة فيهِ . وسأبدأ الكلام بتعريف الرياء فابيّن صفة هذه الرذيلة وصفة صاحبها ثم ابحث في سائر اهواء النفس متبعاً الخطة التي رسمتها

في الرياء

ليس من السهل تعريف الرياء تعريفاً شافياً ولكن اذا اقتصر على تعريفه تعريفاً بسيطاً امكن ان يقال انهُ فنٌ يُقصد بهِ تلفيق الكلام والاعمال لغرض سيء . فالمرائي هو الذي يتقرب الى اعدائهِ ويحادثهم ويعطيهم من طرف لسانهِ حلاوةً حتى يحملهم على التصديق بانهُ لا يبغضهم . ويصوغ عبارات المديح والثناء على اولئك الذين يضمر لهم الشر والاذى . ويتظاهر بالغم والاسى لاجلهم اذا حلّت بهم مصيبة او فُجعوا بمالٍ او ولدٍ كما يتظاهر بالصفح عن الاهانات والسيئات التي تأتيهِ من كل حدبٍ وصوب . ويروي لك غير مضطرب اشنع الاشياء التي قالها الناس عنهُ قصدَ الحطّ من قدرهِ . ويستعمل احسن عبارات التلطّف والمصانعة لاستمالة الذين نفروا منهُ او اعرضوا عنهُ . واذا قصدهُ قاصدٌ لامرٍ ما تظاهر بانهُ مشغول بالاعمال وطلب منهُ ان يعود اليهِ مرّة ثانية . ثم هو يكتم عن الناس كل ما يعملهُ فلا يدع احداً يقف على حركاتهِ وسكناتهِ وتراهُ حريصاً اذا نطق فلا يلقي الكلام على عواهنهِ . واذا سمعتهُ يتكلم خيّل لك انهُ يتداول امراً هامّاً ويتحمل لنفسهِ اعذاراً باطلة تخلصاً من اللوم والمؤاخذة فتارةً يقول لك انهُ آتٍ من خارج المدينة وتارةً يقول انهُ وصل البلد متأخراً وطوراً يقول انهُ عليل مهزول . واذا عمد الى اقتراض دراهم بالربا يقول لغرمائهِ ان اصدقاءهُ لا يأبونها طيبةً اذا طلبها منهم . واذا سألهُ زيد من الناس ان يشترك في دفع جانب من المال للامر الفلاني اجابهُ ان تجارتهُ كاسدة وانهُ في شدة الضنك والضيق بينما هو يقول لغيرهِ ان تجارتهُ رائجة ايما رواج وان كانت بالحقيقة كاسدة . وكثيراً ما يحاول في حديثهِ معك ان يقنعك بانهُ لم ينتبه الى ما قلت ثم يظهر لك انهُ لم يرَ الاشياء التي وقع نظرهُ عليها او انهُ لا يذكر الامر الفلاني الذي لم يزل حاضراً في ذاكرتهِ . واذا ذاكرتهُ في بعض الامور اجابك بقولهِ « سافتكر في ذلك » . وتراهُ يظهر لك معرفتهُ لبعض الاشياء وجهلهُ للبعض الاخر . ولهجتهُ المعتادة مع القوم هي هذه : « لا اصدق الامر الفلاني . لا اظن انهُ يحصل . لا ادري اين انا » او هو يقول لك : « يلوح لي انني لست انا . فلان لم يقل لي كيت وكيت بالعجب . . . يا صاح قص الامر على الغير . هل يجب ان اصدقك ؟ . . . » الى غير ذلك من عبارات المخاتلة والخداع

فترى اذاً ان كل هذا ليس صادراً عن نفس تحلّت بالبساطة والصداقة بل هو صادر عن ارادة سيئة او عن امرء يتعمد في قولهِ الانكار . ولعمر الحق انهُ لعمل اشد خطراً على الانسان من نمم الصل الناقع

سليم عوّاد